

مقدمة موجزة في دراسة العصر العباسي اجتماعياً وثقافياً

1. الحضارة والثراء والترف

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين منذ القدم حتى يأمن على نفسه مما قد يقع فيها من الثورات ويعزل جنوده عن أهلها فلا يفسدوهم، وكان مما دفعه الى ذلك الثورة الراوندية " وهم نفر من شيعة المنصور في الكوفة كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح فاجتمعوا هاتفين بأن المنصور ربهم، فلما خرج إليهم ينهى عن سوء معتقدهم تدافعوا عليه كالموج محاولين القضاء عليه لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني عنه وحسن بلائه الذي حال دون قتله.

ولما انتهت هذه الفتنة رأى أبو جعفر المنصور أن يحول حاضرتة من الكوفة إلى موضع يأمن فيه الفتن فبعث جماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذي يبتني به مدينته الجديدة وخرج بنفسه يرتاد معهم، وأعجبته بقعة بغداد فأحضر أصحاب القرى المجاورة لها من البطارقة والرهبان وأخذ يسألهم عن أحوالها، فذكروا له أنه يحيط بها أربعة طساسيج، طسوجان في الجانب الغربي هما: فُطْرُبُل وبادورِيا، وطسوجان في الجانب الشرقي هما: نهر بوق وكلواذا، فإن أجذب طسوج أخصب طسوج ثانٍ، ثم ذكروا له قُربها من الفرات وما يحمل إليه التجار من طرائف الشام والمغرب ومصر، ووقوعها على دجلة وما يحمل من متاجر البصرة والتي كانت تأتي من المحيط الهندي، فضلاً عن العروض الأرمينية القادمة من الجزيرة والموصل وما وراءه، وذكروا بأنها محصورة من وراء بنهر دجلة ومن الأمام بنهر الفرات وكأهما سدان منيعان أمام الأعداء، وتقع وسط العراق وبين مدنه.

اختلف المؤرخون في أصل اسمها فقال فريق إنه اسم فارسي وقال آخرون إنه آرامي، وسمها المنصور "دار السلام" أخذاً من قوله تعالى: { لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون }، وبهذا فقد عُني المنصور عنايةً بالغةً ببناء مدينته بعد أن كانت موئلاً للحضارات القديمة التي كانت تلتقي بها قبل الإسلام كالحضارات الكلدانية والفارسية والآرامية. وابتنى فيها قصره المعروف بـ " قصر الذهب " على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة. ومالبتت بغداد أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة، وتكاثر بها التجار والصناع وكان لكل منهم شارع خاص أو سوق خاصة، مثل سوق العطارين وسوق البزازين وسوق الصيارفة والورّاقين. وبائع الحلي والقطع المعدنية،

وسوق الرقيق المكتظ بالجواري من كل جنس، ونزلها الأدباء والعلماء، فزحرت بغداد بالحياة تزينها البساتين والقصور الفخمة والنافورات والبرك والمنتزهات وميادين اللعب والقوارب.

لقد بدت حالة البذخ واضحة لما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي من القادة والوزراء وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين كالشعراء والمغنين ومن العلماء والمتقنين فملأوا أيدي العلماء والأطباء والشعراء والمترجمين بالأموال والثروات الضخمة مما أدى ذلك الى الترف في الحياة.

2. الشعوبية والزندقة

نادى الاسلام بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب، فلا عدناني ولا قحطاني ولا عربي ولا أعجمي، إنما هي أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح. يقول الله عز وجلّ : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير } . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : " أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلاً إلا بالتقوى " .

وهذا بلا ريب المثل الأعلى الذي أراده الإسلام لأمة المسلمين، غير أننا لا نصل إلى عصر علي بن أبي طالب ومانشَب لعهد من حرب صِفِّين (دارت معركة صِفين قرب الفرات في موقعة صِفين أو مدينة الرقة السورية حالياً ، ووقعت بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، والتي انتهت بعملية التحكيم في شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين للهجرة، حيث كان يرفض معاوية بن أبي سفيان مبايعة الإمام علي بن أبي طالب خليفةً للمسلمين، حتى يقتص من قتلة الخليفة الثالث عثمان بن عفان). حتى نرى العصبية القبلية تعود بين القبائل، وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادة الدين في معاملة الموالي، ففرضوا عليهم ضرائب كثيرة، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب في الحقوق، إلا في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، وكانت هذه المعاملة السيئة للموالي سبباً في الضغينة على العرب أو بالأحرى على الدولة الأموية، فشاركوا الخوارج والشيعية في الثورة عليها، فأخذ فريق منهم يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملكها الساسانيين، وجماعة أخرى تشكلت حول داعية العباسيين

بخراسان، فنفذ الفرس إلى المناصب العليا في الدولة العباسية، وحدث بذلك تحوُّلٌ خطيرٌ في مقاليد الحكم حيث أصبح للفرس مكانة رفيعة في المجتمع العباسي الجديد فكان سبباً في بروز نزعة الشعبوية نسبةً إلى الشعوب الأعجمية، والشعبوية هي نزعةٌ تقوم على مفاخرة الشعوب – وفي مقدمتها الشعب الفارسي – للعرب مفاخرةً تستمد من حضارتهم وما كان للعرب فيه من بدوّةٍ وحياةٍ خشنةٍ غليظة. والشعوبيون متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دون المراتب. إذ قدّموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقّصوا قدرهم وصعّروا شأنهم.

كان الشعوبيون طوائف مختلفة، فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يظفروا دون العرب بالحكم والسلطان. ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب، ومنهم مجّانٌ خلّعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خميرٍ ومجون واستمتاع بالحياة، والأشدُّ من كلّ ذلك عُنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به.

أما رجال الحركة الشعبوية فكانوا من رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين إذ كانوا يحرضون على إشعال نار الفتن فيمن حولهم من الفرس، فكان منهم بينهم العالم والأديب والشاعر، ومن أشهرهم أبا عبيدة اللغوي الإخباري، وأصله من يهود فارس، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب وبلغ من الأمر أن طعن في بعض أسباب الرسول صلى الله عليه وسلّم، ومما لاشكّ فيه أنّ عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق، وكان في الوقت نفسه يُعنى بالكتابة في فضائل الفرس.

ومنهم علّان الشعبوي الفارسي وكان منقطعاً إلى البرامكة ونسّخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون، وألّف في مثالب القبائل العربية كتاباً سمّاه "الميدان".

وأما سهل بن هارون الفارسي أحد صنائع البرامكة، وقد أسند المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة، وكان يتعصب على العرب تعصباً شديداً، وصنّف في ذلك كتباً كثيرة، وقد افتتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالةٍ أشاد فيها بالبُخل وغيظاً غصّاً شديداً من فضيلة الكرم العربية.

أما شعراء الحركة الشعبوية، فأهم شاعر أثار الخصومة على العرب هو الشاعر بشار بن بُرد وكان في عصر بني أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس، حتى إذا حدث الانقلاب العباسي بنقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذي الجلال، يقول:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العُريبِ فخذُ بفضلِكَ
فأفخر

وقد مضى يشنُّ حرباً عنيفاً على العرب، وكان أبوه طيئناً يضربُ اللَّينَ
فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلاً في نسب واسع، ولم يكتف بهذا
النسب الذي ادعاه فقد زعم أنه ينتسب من قبَلِ أمّه إلى قياصرة الروم على
نحو ما نجد في قصيدته:

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميع العرب
وقيصراً خالي إذا عددت يوماً نسبي

لقد كانت شعوبيته صارخة فضلاً عن أنه كان زنديقاً وعدواً للعرب
والدين الإسلامي.

وممن يُسلِّكون في شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمي، ولم يكن جاداً
في تعصبه على العرب وخصومتهم، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين
غيرهم من الشعوب. أما شعوبية أبي نواس فترجع إلى شغفه بالخمير وعكوفه
على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية، فهي شعوبية ناشئة عن
الاستمتاع بالذات. وجعلها غاية الغايات من حياته، وقد مضى يصور ذلك
بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبديّة الخشنة وما يتصل بها من بكاء
الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من
النشوة بالخمير والغلو في الشراب والإغراق في اللذات، وقد تأثر بهذه النزعة
شعراء النبط والهند، من مثل قول أبي الأصلع الهندي يفخر بالهند وما
أخرجته تلك البلاد:

لقد يعذلني صحتي وما ذلك بالأمثل
وفي مدحتي الهندُ وسهمُ الهندِ في المقتل
وفيه السَّاجُ والعاجُ وفيه الفيلُ والدَّغفلُ

أما كلمة "الزندقة" فليست عربية وإنما هي تعريب لمصطلح إيراني
كان يُطلقه الفرس على فعلٍ من يؤولون "الأفيستا" كتاب داعيتهم "زردشت"
"تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة "ماني"
ومن فُتِنوا بها من الفُرس. وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي
ليشمل كل من يستظهر المجوسية، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحادٍ
بالدين الحنيف وكل مجاهرةٍ بالفسق والإثم.

ومعروف أن جمهور الفُرس قبل الإسلام كانوا مجوساً على دين زردشت
الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه
لهم من التعاليم ضمَّنها كتابه "الأفيستا" وفيه زعم أن للعالم إلهين

هما " أهورامزد " إله النور وخالق كل خير، و " أهرمن " إله الظلمة وخالق كل شرّ. وأن وراء الحياة الدنيا حياةً أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فلما النعيم وإما الجحيم، وأنّ النار مقدّسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان.

وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داع يسمى " ماني " مزج في تعاليمه بين الزردشتية والبوذية والنصرانية، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهي النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك. وفي أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر داع جديد في إيران هو " مزدك " وكان ثنويّاً يؤمن بإلهي النور والظلمة ويدعو الى العكوف على اللذات والشهوات وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس وكان له أتباع كثيرون.

وقد عامل الإسلام والمسلمون المجوسَ معاملة أهل الكتب السماوية، وبذلك ظلت المجوسية حية حتى العصر العباسي، وقد قُتِلَ كثيرون من رؤوس الزنادقة لهذا العصر، يتقدمهم ابن " المقفع " الذي قتل لعهد المنصور، وفيه يقول المهدي ثالث خلفاء الدولة العباسية بالعراق : " ما وجدتُ كتابَ زندقَةٍ قطّ إلاّ وأصله ابن المقفع " ، ومنهم أيضاً صالح بن عبد القدوس وكان يعتنق المانوية ويحاضرُ ويناظرُ فيها فقتل وصُلِبَ على الجسر ببغداد ليكون للناس نكالاً و عِظةً ، ومنهم بشار بن بُرد وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما ويفضّل إبليسَ على الانسان، فقُتِلَ على يد المهدي بالبصرة.